ترك العمل بعد الشروع

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾. (سورة محمد)

التحليل اللفظي

تبطلوا: تضيعوا ثوابها من بَطَل الشيء يَبْطُل بُطْلاً وبطلاناً: ذهب ضياعاً وخسراً.

صدوا: أعرضوا من الصد: وهو الإعراض والصدوف، قال تعالى: ﴿رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً﴾.

فلا تهنوا: أي لا تَفْتُروا، ولا تضعُفُوا، ولا تجبُنوا عن قتال العدو من الوهن، أي: الضعف في النفس والعمل، قال تعالى: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾.

لن يَتِرَكُم: أي لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، ولن يظلمكم، من وَتَره حقَّه وماله نقصه إياه، وفي حديث النبي ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله».

قال أبو عبيدة: وتَرْتُ الرجل إذا قتلتَ له قتيلاً من ولدٍ أو أخ، أو حميم، أو قريب، أو ذهبتَ بماله.

قال الزمخشري: وحقيقته: أفردته من قريبه، أو ماله. وهو الفرد، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الوا فصيح الكلام[1].

المعنى الإجمالي

نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين مخاطباً إياهم بوصف الإيمان تذكيراً لهم بأن هذا الوصف يدعوهم إلى طاعة الله جل جلاله في أوامره ونواهيه، فطاعته هي السبيل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة المولى سبحانه فعلى المؤمن أن يتّبعه في كل سُنَّة سنَّها.

ثم نهى الله المؤمن عن إبطال عمله، فقد يقدِّم أعمالاً كثيرة من الطاعة، ولكنه قد يضيع عمله بالمعاصي والرياء والعجب... إلى غير ما هنالك، فنهاه الله عن ذلك، فعلى المؤمن أن يحافظ على ما يقدم من الطاعات.

ثم بين الله تعالى أنه لا يغفر الشرك، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، حتى لا يظن الظان أن المؤمن إن أبطل عمله بالمعاصي فقد هلك، بل فضلُ الله باق يغفر له بفضله، وإن لم يغفر له بعمله.

وإذا كان أمر الكفار في الآخرة هذا، فأمرهم في الدنيا كذلك من الذلة والحقارة، فلا تضعفوا أيها المؤمنون في ملاقاتهم، ولا تجبنوا عن قتالهم، فالنصر لكم آجلاً أو عاجلاً، فلا تدعوا الكفار إلى الصلح خوراً، وإظهاراً للعجز، فإن ذلك إعطاء للدنية، وأنتم الأعلون عزةً وقوةً ورفعة مكانة، وذلك لأن الله معكم يؤيدكم بنصره، ويؤيدكم بقوته، ولن ينقصكم من أعمالكم شيئاً بل يعطيكم ثوابها كاملا غير منقوص.

فائدة

أولاً: أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة

---

(١) البحر المحيط ٨/٨٥، والقرطبي ١٦/٢٥٦، وروح المعاني ٢٦/٨٠.

وا ن أبي حاتم عن أبي العالية قال: (كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع (لا إله إلاّ الله) ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل. ولفظ عبد بن حميد: فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم).

ثانياً: وأخرج ابن نصر المروزي وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

كنا معاشر أصحاب محمد ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً، حتى نزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾، فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات، والفواحش، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا: قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له[1].

وجوه القراءات

أولاً: قوله تعالى: ﴿وتدعوا إلى السّلم﴾، قرأ الأكثرون بفتح السين (السَّلْم). وقرأ الحسن وحمزة وغيرهما بكسر السين (السِّلْم)

ثانياً: قوله تعالى: ﴿تَدْعوا﴾، قرأ الجمهور تدعوا مضارع دعا. وقرأ السّلمي بتشديد الدال تدَّعوا: أي تفتروا.

وجوه الإعراب

١ ــ قوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون﴾: جملة حالية، وكذا (والله معكم).

ويجوز أن يكونا جملتي استئناف، أخبر أوّلاً بقوله ﴿وأنتم الأعلَوْن﴾ فهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود؛ ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها وهي كون الله تعالى معهم[2].

---

(١) البحر المحيط ٨/٨٥.

(٢) روح المعاني ٢٦/٨٠.

فلا تهنوا: الفاء فصيحة في جواب شرط مفهوم مما قبله أي إذا علمتم أن الله مبطل أعمالهم ومعاقبهم فهو خاذلهم في الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم، ولا تظهروا ضعفاً.

وقيل: هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة [1].

وتدعوا إلى السلم: عطف على تهنوا داخل في حيّز النهي.

وجُوِّز أن يكون منصوباً بإضمار «أن» فيعطف المصدر المسبوك على مصدر متصيّد مما قبله [2].

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى: قال الفخر الرازي: قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ العطف ها هنا من باب عطف المسبب على السبب، يقال اجلس واسترح، وقم وامش، لأن طاعة الله تَحْمل على طاعة الرسول) [3].

وقال الألوسي: وإعادة الفعل في قوله: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام) [4].

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ الآية.

قال الفخر الرازي: يحتمل وجوهاً:

أحدها: دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم قال تعالى: ﴿لئن أشركْتَ ليَحْبَطَنَّ عملُكَ﴾.

الوجه الثاني: لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول كما أبطل أهل الكتاب

---

(١) روح المعاني ٢٦/٧٩.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٧/٥٥١.

(٤) روح المعاني ٢٦/٧٩.

أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ويؤيده قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾.

الثالث: لا تبطلوا أعمالكم بالمنّ والأذى كما قال تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم﴾[1].

وقد اختلف العلماءُ فيما يبطل الأعمال على أقوال:

قال الحسن: المعاصي والكبائر.

وقال عطاء: الشك والنفاق ونقل عن ابن عباس.

وقال ابن عباس: الرياء والسمعة ونقل عن ابن جريج.

وقال مقاتل: المن.

وقيل: العُجْب فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وقيل: المراد بالأعمال الصدقات أن تعطلوها بالمن والأذى.

قال القرطبي: وكله متقارب وقول الحسن يجمعه[2].

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون﴾، استعمال العلو في رفعة المنزلة مجاز مشهور. أي أنتم أعز منهم لأنكم مؤمنون والحجة لكم، وإن غلبوكم في بعض الأوقات وذلك كقوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

وقيل وأنتم الأعلون: أي أنتم أعلم بالله منهم.

وقال الجصاص: أي وأنتم أولى بالله منهم.

وكلها متقاربة فالإيمان يرفع منزلة أهله ويعزهم.

اللطيفة الرابعة: قال الفخر الرازي: قوله: ﴿ولن يَتِرَكم أعمالَكم﴾ وعد لأن

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٧/٥٥١.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/٢٥٥، وينظر روح المعاني ٢٦/٧٩، وزاد المسير ٧/٤١٣.

الله تعالى لما قال: ﴿والله معكم﴾ كان فيه أن النصر بالله لا بكم، فكأن القائل يقول: لم يصدر مني عمل له اعتبار، فلا أستحق تعظيماً، فقال: هو ينصركم ومع ذلك لا يَنْقُص من أعمالكم شيئاً، ويجعل كأن النُصرة جعلت بكم، ومنكم، فكأنكم مستقلون في ذلك، ويعطيكم أجر المستبد[1].

اللطيفة الخامسة: في الآية الكريمة دعوة إلى العزّة والكرامة، وتشجيع للمؤمنين للجهاد والنضال، لمجابهة أعدائهم دون وهن أو خور، لأن المؤمن لا يرضى بحياة الذل والهوان، وقد أحسن من قال:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

الأحكام الشرعية

أولاً: إذا شرع بالنافلة ثم أبطلها هل يجب عليه قضاؤها؟

دلّ قوله تعالى: ﴿ولا تُبطلوا أعمالكم﴾ على أن كل من دخل في قُربة، لم يجز له الخروج منها قبل إتمامها:

واختلف العلماء في هذا الحكم على مذهبين.

فذهب (الشافعي وأحمد) إلى أن للمرء أن يترك النافلة إذا شرع فيها ولا شيء عليه ما عدا الحج فيجب عليه الإتمام، وأما في الصلاة والصوم فيستحب له الإتمام ولا يجب.

وذهب (أبو حنيفة ومالك) إلى أنه ليس له ذلك، فإذا أبطله وجب عليه القضاء.

أدلّة المذهب الأول:

قالوا: هو تطوع، والمتطوع أمير نفسه، وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع، قال تعالى: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٧/٥٥٢.

وقالوا: في جواب الاستدلال بالآية: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض، فنهي الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلاً فلا، لأنه ليس واجباً عليه.

واللفظ في الآية وإن كان عاماً، فالعام يجوز تخصيصه، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي تخييراً.

أدلّة المذهب الثاني:

وقال المالكية والأحناف: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أفاد أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز، لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت أنا وحفصة صائمتين فأهدي لنا طعام، فأكلنا منه فدخل رسول الله ﷺ، فقالت حفصة وبدرتني، ـ وكانت بنت أبيها ـ: يا رسول الله، إني أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدي لنا طعام فأفطرنا عليه فقال: اقضيا مكانه يوماً»(١).

وقالوا في جواب دليل المذهب الأول: المتطوع أمير نفسه، ولا سبيل عليه قبل أن يشرع أما إذا شرع فقد ألزم نفسه، وعقد عزمه على الفعل، فوجب أن يؤدي ما التزم وأن يوفي بما عقد، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾.

ثم اللفظ عام في الآية يشمل التطوع وغيره(٢).

الحكم الثاني: قوله تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم﴾:

فيه دلالة على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين، فأما إذا كان في الكفار قوة، وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين ورأى الإمام المسلم في المهادنة، والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار

---

(١) رواه مالك في الموطأ ١/٣٠٦، والترمذي برقم (٧٣٥)، وأبو داود برقم (٢٤٥٧)، وأحمد في المسند ٦/٢٦٣.

(٢) انظر زاد المسير ٧/٤١٣، وأحكام القرآن للجصاص ٣/٣٩٣، وتفسير القرطبي ١٦/٢٥٥.

قـريش عن مكـة ودعـوه إلى الصلح ووضع الحـرب بينهم وبينـه عشـر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك[1].

«فـائـدة»:

دلَّ قـوله تعـالى: ﴿فلا تَهِنـوا وتدعـوا إلى السَّلْم وأنتُمْ الأعْلون...﴾ الآية، على أن النبـيّ ﷺ لم يدخل مكة صلحاً، وإنما فتحها عَنوةً، لأن الله تعالى قـد نهاه عن الصلح في هذه الآية.

خاتمة البحث:

حكـمة التشـريع

أمر الباري جلَّ وعلا بجهاد أعداء الله، وحذَّر المؤمنين من إظهار الضعف والخَوَر أمام الكفار، لأن المؤمن عزيزٌ لا يذلُّ، قويٌّ لا يضعف، وهو يستمد عزته وقوّته من الكبير المتعال، العزيز الجبار، الذي لا يذلُّ من اعتمد عليه، والتجأ إليه، ولـمَّـا كان المؤمن هو صاحب الحقِّ، يجاهد لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، ويسعى في هذه الدنيا لإقامة صرح الفضيلة، والعدل، والإيمان، لذلك كان من اللازم أن يظلَّ مرفوع الرأس، موفور الكرامة، لا ينحني ولا يذلُّ لغير خالقه، ولا يطلب المهادنة على حساب الكرامة، وبهذه النفس الأبية، يفرض هو شروطه على خصومه، لأن الإسلام علَّمه طريق العزة والإباء، وصدق الله العظيم: ﴿فلا تَهِنوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأعْلَون واللَّهُ معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم﴾.

* * *

(1) انظر زاد المسير، وأحكام القرآن للجصاص، وتفسير القرطبي ١٦/٢٥٦، وروح المعاني ٢٦/٨٠.